مصير مؤسسة أوقاف الحرمين الشريفين
بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر

د. محمد زاهي
جامعة تيارت

Abstract:

Associated with its inception organize allocated to the Two Holy Mosques, endowments, and for the benefit of each house in the holy cities of Mecca and Medina, Muslims and attached to these places make them think in the creation of endowments serve these holy places so as to facilitate the transfer of these funds and disbursement to the beneficiaries, and have Ottomans gave great importance to these holy places.

Keywords:

inception organize - the Two Holy Mosques - Muslims - Mecca and Medina.

ارتبطت نشأتها بتنظيم الأوقاف المخصصة للحرمين الشريفين، ولصالح آل البيت في المدينتين المقدستين مكة المكرمة والمدينة المنورة1، وتعلق المسلمون بهذه الأماكن جعلهم يفكرون في إنشاء أوقاف تخدم هذه الأماكن المقدسة حتى يسهل نقل هذه الأموال وصرفها على مستحقيه2، ولقد أعطى العثمانيون أهمية كبيرة لهذه الأماكن المقدسة، حيث تعود أقدم سجلات أوقاف الحرمين الشريفين إلى سنة 884هـ/ 1479م3.

تعود أقدم معطيات المتعلقة بأحباس الحرمين الشريفين بالجزائر في الفترة العثمانية إلى بداية التواجد العثماني بها، والدليل على ذلك تلك الوقفية التي تعود إلى أوائل شعبان من سنة 935 هـ/ 1529م، وهي وقفية عبد العزيز ابن المولى الشريف الحسيني لصالح فقراء الحرمين الشريفين4.

تميزت مؤسسة أوقاف الحرمين الشريفين (مكة المكرمة والمدينة المنورة) عن باقي المؤسسات الوقفية الأخرى، أهلتها لكي تصبح أهم وأكبر مؤسسة وقفية في الجزائر، دفعت كل سكان الجزائر التابعين للمذهب المالكي أو المذهب الحنفي بوقف أملاكهم لصالح هذه المؤسسة، على عكس المؤسسات الوقفية الأخرى التي كانت تعتمد إما على فئة معينة تعتمد على فئة تنتمي إلى مذهب معين (المذهب المالكي أو الحنفي) أو جماعة معينة (جماعة الأشراف، الأندلس).

تعود أهمية هذه المؤسسة لمدى قدسية الحرمين الشريفين مكة المكرمة والمدينة المنورة في نفوس الجزائريين شأنهم في ذلك شأن سائر مسلمي العالم، حيث كانت توجه إلى فقراء الحرمين الشريفين مبالغ مالية معتبرة سميت بالصرة، كانت توجه للبقاع المقدسة في موسم الحج. وقد بلغت مداخيل أوقاف المباني السكنية والأوقاف الزراعية حداً كبيراً جداً، أتيحت لها الفرصة الزمنية الطويلة للتراكم، فأصبحت تدر على مؤسسة الحرمين الشريفين أموال أكسبتها ثروة طائلة في رصيدها5، فبلغت فيه قدراً كبيراً من مجموع الثروة في الجزائر في الفترة العثمانية وفي بداية الاحتلال الفرنسي6.

والجدول التالي يوضح لنا مردود أوقاف مؤسسة الحرمين الشريفين وبعض المؤسسات الوقفية الأخرى من سنة **1836** إلى سنة **1840**.

الجدول رقم (01): جدول عام تطور مداخيل بعض المؤسسات الوقفية من سنة **1836** إلى سنة **1840** مقدر بالفرنكات[7]

السنة	أوقاف الحرمين الشريفين	أوقاف سبل الخيرات	أوقاف أهل الأندلس
1836	107462.96	10.019,33	92.22
1837	111038.46	13.408,04	3988.50
1838	127895.65	13.989,25	4098.54
1839	131941.13	14.393,78	4063.98
1840	167585.44	15.715,66	4017.85

قدر دوفو (Devoulx) عدد الأملاك الموقوفة على مؤسسة الحرمين الشريفين في بداية الاحتلال بـ 1558 ملكية، وهي تمثل أكثر من نصف نسبة الممتلكات الوقفية الموجودة في مدينة الجزائر وضواحيها، وبذلك احتلت هذه المؤسسة المرتبة الأولى وسبقت المؤسسات الوقفية الأخرى8. وقد أشار إلى هذا الأمر كلا من الطبيب فورم (Worms) ورجل القانون زايس (Zeys)، فالأول ذكر في سنة 1846 أن الإدارة الفرنسية اقتنعت أن العقارات الوقفية تمثل نسبة كبيرة من العقارات داخل مدينة الجزائر وفي خارجها9. أما الثاني فذكر أن فرنسا لما احتلت الجزائر وجدت أن نصف العقارات كانت تابعة للأحباس10

والجداول التالية توضح لنا الأملاك الوقفية ومداخيلها السنوية التابعة لمؤسسة الحرمين الشريفين على حسب جدول دوفو الذي يعود لسنة 1830م والجدول الثاني لـ جانتي دو بيسي يعود لسنة 1833م.

	نوع الملكية	جدول لوحة دوفو (1830)		جدول لوحة جانتي دو بيسي (1833)	
		عدد الملكيات	الدخل السنوي بالفرنك	عدد الملكيات	الدخل السنوي بالفرنك (ما بين قوسين لأملاك مشتركة أو محولة)
أملاك الوقف المستغلة بطريقة مباشرة	منازل	840	26653.80 ف	901 (18 منها مهدمة و7 مشتركة)	51742.48 ف (305.36 ف)
	غرفة	82			31.26 ف

	دكاناً	258			353.09 ف (10.81 ف)
	مخزناً	33			184.52 ف (4.02 ف)
	مقاهي	4			10.28 ف (1.10 ف)
	فندق	01			
	فرناً للخبز	11			6.76 ف (1 ف)
	أفران جير	3			
	طاحونات	6			4.51 ف
	حمام	1			18.50 ف
	بستاناً	51			لا يوجد معلومات
	ضيعة	62			لا يوجد معلومات
أملاك وقفية مستغلة بطريقة غير مباشرة (عناء)	عناء (مردود) مختلف الأملاك الوقفية	201	7209.25 ف	196 (55 محولة لصالح مصالح الدولة)	لا يوجد معلومات
مجموع الأملاك الوقفية		**1558**	**43222.70 ف**	**1386**	**المدخول العام 52739.28 ف**

تذكر المصادر الفرنسية مدى **اهمية** الممتلكات الوقفية التابعة للحرمين الشريفين، فقد قدرها دوفو (Devoulx)**11** بـ **1558** ملكية وقفية بمدينة الجزائر، وقدرتها لجنة **الإفريقية12** سنة **1834** بـ **2101** ملكية وقفية، أما لوحة المؤسسات الفرنسية **بالجزائر13**لسنة **1830**– **1837** تقدرها بـ **1419** ملكية وقفية، أما جانتي دو **بيسي14** (Genty De Bussy) فيقدرها بـ **1386** ملكية

وقفية سنة 1833 على حسب وكيل الحرمين الشريفين. إن ما سبق كله، يؤكد حقيقة لا يمكن نفيها، مدى غنى هذه المؤسسة الوقفية، الأمر الذي جعل السلطات العسكرية الفرنسية تخطط الاستيلاء عليها، في فترة بداية الاحتلال الفرنسي. وكان أول إجراء قامت به هو إصدار قرار 8 سبتمبر 1830، ثم تلاه إصدار قرار آخر دعما للقرار الأول في 7 ديسمبر التي قررت فيه السلطات الفرنسية في مادته الأولى مصادرة أوقاف الحرمين الشريفين وتصفيتها15 .ولقد عمل العلماء والمفتون قصارى جهدهم للتصدي بحزم للهجمة الفرنسية على أوقاف الحرمين الشريفين ورفضوا إخضاع الأوقاف إلى مديرية أملاك الدولة الفرنسية، الأمر الذي جعل السلطات الفرنسية تتراجع عن فكرتها وتترك هذه المؤسسة الوقفية تسير من طرف المسلمين لكن تحت مراقبتها16.

كما شهدت فترة بداية الاحتلال، تغييرات أساسية في طبيعة مهام مؤسسة الحرمين الشريفين أثرت على طبيعة الأوضاع الدينية، كان من أهمها منع توجيه المبالغ المالية (الصرة) إلى فقراء الحرمين الشريفين مكة المكرمة والمدينة المنورة التي كانت توجه في فترة الحج، والتي كانت تقدر بحوالي 2000 محبوب ذهبي الذي يساوي 14000 إلى 15000 فرنك فرنسي ذهبي17. أما المبالغ المالية (الصرة) الذي كان يتم توجيهها من قسنطينة نحو الحرمين الشريفين، قد واصلت السلطات الجزائرية بقيادة أحمد باي توجيهها إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة عن طريق تونس18.

كانت هذه الوضعية التي آلت إليها الجزائر بعد الاحتلال، من جراء أعمال النهب التي لم تستثن أي جانب من جوانب الحياة، انعكاساً سلبياً على مؤسسة الحرمين الشريفين، التي بدأت تعرف تراجعاً كبيراً في نسبة الفائض من المبالغ المالية، الذي بلغ سنة 1830 حوالي 71.703 فرنكاً

فرنسياً و5 سنتيما ليتراجع إلى 19.003 فرنكاً فرنسياً و39 سنتيماً سنة 1831، لينخفض في سنة 1832 إلى 11.047 فرنكاً فرنسياً و44 سنتيماً، ليتراجع أكثر إلى 6.480 فرنكاً فرنسياً و20 سنتيماً سنة 1833م19. ولعل السبب الرئيسي لتراجع فائض أوقاف مؤسسة الحرمين الشريفين، يرجع إلى استيلاء السلطات العسكرية الفرنسية على العديد من الملكيات الوقفية من مباني وحوانيت، حيث يذكر السيد بيشون (Pichon)، أن الجيش الفرنسي استولى على 55 ملكية تابعة لأوقاف الحرمين الشريفين ما بين سنة 1830 – 1832م20. بالإضافة إلى سياسة تدمير الملكيات الوقفية، حيث تؤكد المصادر الفرنسية أنه تم تدمير حوالي 188 ملكية وقفية في مدينة الجزائر، وتحويل بعضها إلى المصالح المدنية والعسكرية الفرنسية21. ويذكر دوفو (Devoulx) أن عدد العقارات التابعة لمؤسسة الحرمين الشريفين التي تعرضت لعملية الهدم والتحويل سنة 1835، بلغت حوالي 952 عقار بعدما كان يبلغ عددها في بداية الاحتلال بـ 1558 عقار22. ونظراً لبقاء هذه العقارات تحت يد الفرنسيين وإتلاف بعضها، فقد حرم عدد كبير من الجزائريين إمكانية الاستفادة من خدماتها.

عمدت السلطات الفرنسية إلى التفنن في إبداع أساليب الخداع والمكر، حيث اتهمت الوكلاء بالخيانة وسرقة أملاك الأوقاف23، فاتخذت هذه الحجة لوضع تغييرات إدارية سنة 1835 على معظم المؤسسات الوقفية وعلى رأسها أوقاف الحرمين الشريفين، فقامت بتسريح الوكيل واستبداله بوكيل آخر وضع تحت مراقبة مصلحة إدارة المالية، حيث ارتفعت مداخيل مؤسسة الحرمين الشريفين على حسب زعمهم سنة 1836 إلى أكثر من 40000 فرنك فرنسي24، حيث كانت هذه المداخيل المالية الضخمة قبل الاحتلال الفرنسي، يستخدم جزء منها في صيانة المباني الدينية والأملاك الوقفية، لكن بعد الاحتلال25 الأمور تغيرت وأهملت هذه الخدمات مما

جعل العديد من المساجد والأملاك الوقفية التي تشرف عليها هذه المؤسسة تتعرض إلى الهدم. لقد جاء في لوحة المؤسسات الفرنسية بالجزائر لسنة 1836، أنه بلغت مداخيلها السنوية سنة 1836 ما قيمته 117.858 فرنكاً فرنسياً و75 سنتيماً. وارتفعت مداخيلها سنة 1837 إلى 122.503 فرنكا فرنسياً، بينما قدرت مصاريفها إلى ما قيمته 109.895 فرنكاً فرنسياً و99 سنتيماً. وهذا ما وفر للمؤسسة فائضاً مالياً قيمته 12.607 فرنكاً فرنسياً و37 سنتيماً26.

- هل صحيح أن هذه المداخيل الكبيرة لمؤسسة الحرمين الشريفين في فترة الاحتلال الفرنسي دليل على حسن تسيير الإدارة الفرنسية لها؟

لعل الارتفاع الكبير للمداخيل السنوية لمؤسسة الحرمين الشريفين في بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر، يعود إلى ارتفاع أسعار العقار في هذه الفترة مما أدى إلى ارتفاع كراء (العناء) البيوت والغرف والحوانيت والأراضي والجنات، بالإضافة إلى الضغوطات التي كانت تعرضها الإدارة الفرنسية على وكيل أوقاف الحرمين الشريفين للحصول على قدر كبير من المداخيل المالية، بالإضافة إلى اهتمام السلطات الفرنسية بالمداخيل دون المصاريف التي سوف تدخل في إطار ميزانية الاستعمار الفرنسي بالجزائر.

وقد كانت أكبر المصاريف المالية لمؤسسة الحرمين الشريفين في بداية الاحتلال الفرنسي مخصصة للصدقات المقدمة للفقراء، فقد كان عددهم حوالي 2000 فقير في سنة 1837م، بعدما كان عددهم في سنة 1835م حوالي 1300 فقير فقط. وقد رصدت مؤسسة أوقاف الحرمين الشريفين سنة 1835م مبلغ مالي قدر بـ 78.200 فرنك فرنسي لمساعدة الفقراء من مجموع المصاريف التي قدرت بـ 130.981 فرنكاً فرنسياً و60 سنتيماً. وكان

نصيب معين من هذه المصاريف مخصص للأشخاص الذين يعود أصلهم إلى مكة المكرمة المتواجدون بالجزائر27.

والجدول التالي يوضح لنا مصاريف أوقاف الحرمين الشريفين من سنة 1836 إلى سنة 1841م.

المصاريف (بالفرنك الفرنسي)	1836	1837	1838	1839	1840	1841	المجموع
المصاريف الإدارية	364732.2	40366.79	34712.90	41631.01	45689.43	27799.45	226372.20
الصدقات	653300.05	49728.95	57281.60	75587.70	72.000	87400	407328.30
خدمات متنوعة	1570.85	780260.	6973	7043	7388.50	5934.30	36712.25
الأعمال		6457	8117	9731.82	1610.57	12305.02	53331.41
هبات للمساجد			896.30				896.30
مصاريف مؤقتة			47.05	334.25	2694.80	805	3892.10
صيانة المباني	2627.03	5529.65	1909.40	8740.84	011.95	39001.43	79820.30
تعويض للملكيات الأهلية						4013.13	4013.71
المجموع	5701.15	09895.99	09937.25	43068.62	495.25	77268.91	312367.17

يتضح لنا من استقراء جدول مصاريف أوقاف الحرمين الشريفين من سنة 1836 إلى سنة 1841م، ما يلي:

- ارتفاع المبالغ الكبيرة المخصصة للصدقات على الفقراء، ولعل هذا الارتفاع الكبير للصدقات من طرف هذه المؤسسة الوقفية، دليل على سياسة فرنسا التعسفية التي أدت إلى وقوع مظالم وجرائم ضد الشعب الجزائري، الأمر الذي أدى إلى انتشار ظاهرة الفقر في الجزائر في تلك الفترة. فحاولت تلك المؤسسة تخصيص كل مواردها المالية من أجل تقديم مساعدات لهؤلاء الفقراء الجزائريين.

- انخفاض المبالغ المالية المخصصة للمساجد وصيانة المباني الوقفية، الأمر الذي سوف يؤدي إلى تعرضها للخراب والهدم.

تؤكد المصادر الفرنسية حسب ما جاء في التقرير الذي أصدرته السلطات الفرنسية سنة 1837 حول المؤسسات الوقفية والدينية، أن هذه المؤسسات الخيرية وقعت في خسارة كبيرة منذ أن تدخلت فرنسا في إدارتها28، هذه المؤسسات الوقفية التي لم تعرف مثل هذه الخسارة طيلة الفترة العثمانية.

استغلت السلطات الفرنسية القوانين التي أصدرتها للسيطرة على كل ما يمكن السيطرة عليه من مؤسسات وقفية، حيث قرر مرسوم 31 أكتوبر 1838م في مادته الرابعة، أن لمدير المالية حق تسيير ورقابة المؤسسات الوقفية وعلى رأسها مؤسسة الحرمين الشريفين، وبالتالي لم يبق لوكيل المؤسسة الوقفية سوى جمع المبالغ المالية الخاصة بالكراء (العناء)29. وكان أخطر قرار الذي قضى على هذه المؤسسة الوقفية، هو قرار 23 مارس 1843 الذي نص

على إلحاق المداخيل والمصاريف الناتجة عن مؤسسة أوقاف الحرمين الشريفين بالميزانية الاستعمارية على حساب الجزائريين30.

تصفيتها:

استطاعت السلطات الفرنسية التخلص من نظام الأوقاف الإسلامية، واستبداله بنظام فرنسي سمي بالمساعدات الخيرية الفرنسية، ولكن بالاعتماد على مداخيل مؤسسة أوقاف الحرمين الشريفين، ففي سنة 1844م تم إنشاء مكتب المساعدات الخيرية، الذي كان يتكون من أربعة أقسام31، كل قسم يمثل مؤسسة وقفية لم يتم تصنيفها نهائيا بعد هي:

1- مؤسسة أوقاف الحرمين الشريفين، 2- مؤسسة أوقاف سبل الخيرات، 3- مؤسسة أوقاف الأندلس، 4- مؤسسة بيت المال.

ولم يبقى في سنة 1854 من مكتب المساعدات الخيرية سوى قسم واحد هو قسم بيت المال، الذي أصبح يتكفل فقط بتصفية تركة المسلمين32، وهذا دليل واضح على تصفية المؤسسات الوقفية وعلى رأسها مؤسسة أوقاف الحرمين الشريفين قبل سنة 1854م.

والغريب في الأمر أن المساعدات الخيرية الفرنسية، اعتمدت في ميزانيتها على المداخيل المالية التابعة لمؤسسة أوقاف الحرمين الشريفين، باعتبارها أهم وأكبر مؤسسة وقفية بالجزائر.

وأخيرا يمكن تفسير لجوء الاستعمار الفرنسي بالجزائر إلى ممارسة هذه السياسة ضد الأوقاف الإسلامية، على أنه نوع من التعصب الديني، بالإضافة إلى الشعور بالتفوق وإنكار الحضارة الإسلامية خلال كامل الفترة الإستعمارية.

الإحالات:

[1]- عائشة غطاس، حول الوثائق المتعلقة بأوقاف الحرمين الشريفين، أعمال الوقف في الجزائر أثناء القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، مجلة دراسات إنسانية، عدد خاص، الجزائر، 2001- 2002، ص 140.

[2] –Hoexter (Miriam), Endeweements, rules and community wakfal Harameyn in Ottoman Algiers, Leiden/ Brill, 1998, p1.

[3]–Beorman Encyclopédie de l'Islam, Nouvelle édition, TIII, Leiden/ Bill, 2005, p 179.

[4]- س.م.ش، علبة 34 و 82.

[5]- ناصر الدين، سعيدوني، دراسات تاريخية في الملكية والوقف والجباية، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 2001،ص262

[6]- A.O.M. 8 H 15-16, Récapitulation général des corporations .

[7] – A.O.M. 2X 103, Rapport de la fondation de la Mecque et Médine et des établissements pieux, 12 Janvier 1834.

[7]- ناصر الدين، سعيدوني، دراسات تاريخية في الملكية والوقف...، المرجع السابق، ص 263.

[8] – Worms, Dr M., "Recherches sur la constitution de la propriété territoriale dans les pays musulmans et subsidiairement en Algérie", de la propriété rurale et urbaine en Algérie, in Revue de législation et de jurisprudence, mai 1884, p. 30.

9 – Zeys, E., Traité élémentaire du droit musulman algérien (école malikite), T. II, Alger, A. Jourdan, 1885, p. 181.

10 - Devoulx, A., Notes historiques sur les mosquées…, op.cit., p.15.

11– Procès-verbaux et rapports de la commission d'Afrique, paris, imprimerie Royale, 1834, T.1, pp. 413- 414.

12 –Tableau de la situation d'établissements français dans l'Algérie, Paris, Imprimerie impérial. T.I, 1830- 1837, p. 221.

13 – Genty De Bussy, P., De l'établissement des Français dans la régence d'Alger et des moyens d'en assurer la prospérité, 2éme édition, T.II, paris, F. Didot, 1839, tableau N°63.

14 –Recueil des actes du gouvernements 1830- 1854, op.cit., p.5.

15 –Ibid., p. 5.

16 Tableau de la situation…, op.cit., T.II, 1838, p. 221.

17- Ibid., p. 36.

18 –Ibid., p. 225.

[19]- خديجة، بقطاش، الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر1830- 1871م، الجزائر، منشورات دحلب،2007، ص27.

20 – Tableau de la situation…, op.cit., 1838, p. 221.

22 – Devoulx (A), les édifices religieux de l'ancien Alger, in RA, N°4/1859- 1860, p. 475.
23 –A. O.M. 2X 103, Rapport de la fondation de la Mecque et Médine et des établissements pieux, 12 Janvier 1834.
24 –Devoulx (A), op.cit., RA, N°4/1859- 1860, p. 221.
25 – Aumerat, La propriété urbaine à Alger et le bureau de bienfaisance musulmane., p. 327.
-26 Tableau de la situation…, op.cit., T.II, 1838, p. 227.
27 –Nacereddine, Saidouni, Awqaf, N°6, third year, Rabi II 1425H/ June 2004, pp. 62- 63.
28 –Ibid, p. 66.
[29]– حمدان بن عثمان، خوجة، المرآة، (تقديم وتعريب وتحقيق: محمد العربي الزيري)، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 19، ص 261.
[30] –Recueil des actes du gouvernement de l'Algérie, 1830- 1854, op.cit., p. 240.
[31] –A.O.M. 2M 184, Proposition pour le budget 1843, Blondel, Alger, le 30 Novembre 1842.
[32]– أبو القاسم، سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزائر، دار البصائر، ج5، 2009، ص 185.